النمو العقلي عند علماء النفس

إهتم علماء النفس بدراسة النمو العقلي في مرحلة المراهقة اهتماماً يتناسب مع أهميته كأحد المرتكزات الأساسية في تكوين شخصية المراهق، بل هو الأساس الأول في إحداث التكيف الصحيح للمراهق مع بيئته الإجتماعية، وقد شملت دراساتهم جميع الوظائف العقلية التي تنمو في هذه المرحلة بشكل واضح.

«إن التغيرات المثيرة التي تحدث في النمو الجسمي أثناء فترة المراهقة المبكرة غالباً ما تقرن بتغيرات مثيرة متساوية في النمو العقلي.. فالمراهقون الصغار عادة ما يكونون قادرين على التعامل مع متغيرات كثيرة في نفس الوقت، ويكون في مقدورهم إدراك المجاز والإستعارة والتعبير بالإبتسام ويفكرون في الأمور والأشياء، . . .»

وهذه التغيرات التي تحدث في قدرات المراهق العقلية يمكن وصفها بصورة كيفية وكذلك بصورة كمية، فمن الجانب الكمي فهناك مؤشران يبدوان على أهمية خاصة.

أ ـ ما يسمى بالقدرة على التمييز أو المفاضلة.

ب ـ تقدم مجرى النمو العقلي، والذي كان يعتقد في أنه يصل إلى ذروته وبعدئذٍ يميل إلى الإنخفاض التدريجي.

كما أن الجوانب النوعية في تفكير المراهق لم تكتشف بصورة مكثفة كما هو الحال في فترة الطفولة حيث نجد أعمالاً تجريبية قليلة في النمو اللغوي والتذكر والإدراك في فترة المراهقة إذا ما قورنت بمثيلتها في فترة الطفولة، كما أن كثيراً من الدراسات التي أجريت على تفكير المراهقين قد ركزت على نمط التفكير السببي للمراهقين وكذلك على حل المشكلة. . . »[1].

هذا القصور المشار إليه في دراسات علم النفس للنمو العقلي في المراهقة سوف أبينه ـ إن شاء الله تعالى ـ بشيء من الوضوح ثم أبين تميز منهج القرآن الكريم وشموله لجميع الإتجاهات العقلية، مما يجعله بحق المرجع الأساسي لعلماء النفس المسلمين يهتدون بإشاراته لتربية العقل وتوجيهه إلى المسار الصحيح الذي يوافق فطرته.

وهناك بعض الدراسات التي عنيت ببيان الصلة بين النمو الجسمي والنمو العقلي.

«يعتمد التكوين العقلي ـ جسمياً ـ (**افيزيولوجيا**) على الجهاز العصبي ودرجة نموه ومرونته وقيامه بالنشاط الحيوي الفعال، ويستخدم الأطباء النفسيون المقياس الكهربائي الخاص لدراسة المخ وفحص تموجاته العصبية وأنواعها والإستدلال بذلك على قوة النشاط العصبي أو ضعفه، مما يكون له أثر كبير في دراسة التكوين العقلي للإنسان وما قد يعتريه من أمراض عصبية أو إنحلال، ويشمل التكوين العقلي كل نشاط إدراكي يتجلى في حياة المراهق، فهو يتضمن المستويات العليا والوظائف العقلية في العمليات الإرتباطية والذكاء كقدرة عامة. ثم

---

(١) علم النفس النمو (صـ ٤٣٢) د/ عادل عز الدين الأشول ـ مكتبة الأنجلو المصرية.

القدرات الخاصة»[1].

وفي حديثه عن المستوى الإدراكي للمراهق يقول:

«للنمو العقلي لدى الإنسان مدارج أو مستويات متتابعة ينتقل معها الإنسان من وليد لا يعقل شيئاً إلى راشد بالغ يدرك ما حوله ويدرك نفسه وما يجري فيه ويستجيب للبيئة ويكيفها للحياة المتطورة وذلك بفضل العمليات العقلية العليا.

ونستطيع أن ندرك المستويات العقلية في تدرجها من مستويات دنيا إلى وسطى فعليا في مراحل التكامل التكويني ثم باتجاه عكسي نازل في مراحل التهدم والتناقض»[2].

إن اكتشاف الدراسات الحديثة في علم النفس لتدرج المستويات العقلية في نموها نحو التكامل التكويني، ومن ثم انحدارها ضامرة في مرحلتي الكهولة والشيخوخة، هذا الكشف الحديث قد أشار القرآن الكريم إلى أصله في آيات بينات منذ أربعة عشرة قرناً فلو أن علماء النفس المسلمين اعتمدوا على القرآن الكريم في دراساتهم لأفادهم كثيراً في دراساتهم العلمية، ولهيأ لهم أسباب السبق في الدراسات النفسية، ولكانوا متبوعين في علومهم ومكتشفاتهم بدلاً من أن يكونون تابعين لشرق أو لغرب.

وهذه إشارة القرآن الكريم إلى بداية التكوين العقلي وأدواته المسببة له.

---

(١) علم النفس التكويني أسسه وتطبيقاته (صـ ٢٠٠) د/ عبد الحميد محمد الهاشمي ـ دار المجمع العلمي بجدة ـ الطبعة الرابعة.

(٢) المصدر السابق (صـ ٢٠٠).

فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

كما أشار القرآن الكريم إلى أن التكوين العقلي في مراحل العمر المتأخرة يتقهقر منحدراً إلى الخلف، فتضعف القدرة العقلية شيئاً فشيئاً.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَ يَتَوفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾[2].

مطرداً

(١) سورة النحل آية: (٧٨).
(٢) سورة النحل آية: (٧٠).